الغزو الثقافى الشيوعى

وإذا كان الغزو الثقافى من الغرب قد بدأ بعد الحروب الصليبية وابتلينا به منذ قرون، ووصل بنا إلى هذا المدى، فقد جد علينا غزو ثقافى جديد وخطير، منذ أوائل هذا القرن، وهو الغزو الشيوعى الماركسى..

لقد أطلق ماركس دعوته الماركسية، ووضع أسسها فى منشوره (المانفستو) فى ١٨٤٨م، الذى يدرسه الآن كل شيوعى فى العالم، كما يدرس لكل مبعوث من أنحاء العالم إلى روسيا، ويمتحن فيه، قبل أن يمتحن فى العلم الذى ذهب لدراسته هناك. وأول مبدأ أو خطوة فى الشيوعية: الاعتقاد بأن الحياة مادة، ولا يوجد إله، وبالتالى لا يعترف برسل ولا كتب، ولا شريعة منزلة من الله.. فالدين خرافة صنعها الإنسان كما صنع الإله ثم عبده..

يقول ماركس: «لا إله والحياة مادة».

ويقول: الدستور والدين والأخلاق خدعة «برجوازية»، يتستر بها البرجوازيون[1] من أجل مطامعهم، إن الدين هو أفيون الفقراء (أى المخدر الذى يخدرهم ويجعلهم لا يطالبون بحقهم)، وهذا هو حجر الزاوية فى الفلسفة الماركسية.. إن جميع الأديان والكنائس والمنظمات الدينية، إنما هى لتخدير الطبقة العاملة، إن رسالة «البروليتاريا» - أى العمال - هى القضاء على الدين والداعين إليه»..

ويقول فى أبجدية الشيوعية: «لا غناء لنا فى الوقت الحاضر عن شن الحرب على تعاليم الدين وأوهامه وخزعبلاته»..

---

(١) كلمة يراد بها الطبقة المتوسطة وأصحاب المصانع والثروات، وهى الطبقة التى تتهمها الشيوعية بأنها تستغل طبقة «البروليتاريا» أى طبقة الفقراء الكادحين من العمال، وتسخر الدين والقانون والسلطة لصالحها فى تسخير البروليتاريا.

ويقوله زميله «إنجلز»: لا محل لوجود خالق فى هذا الزمان»[١]..

ويقول لينين: «إن الدين هو أفيون الشعوب.. والبحث عن الله لا فائدة فيه ولابد من محاربة الدين. هذا هو لب الماركسية، وينبغى أن نعرف كيف نحارب الدين»

ويقول ستالن: لا يستطيع الحزب أن يقف من الدين موقف الحياد، إن الحزب يشن حملة دعائية ضد أى إنحياز للدين، لأن الدين كله شيء مناوئ العلم». ووجه الحزب الشيوعى بيانًا رسميًا للمعلمين فى جميع أنحاء البلاد جاء فيه: «إن المعلم الذى يؤتمن على تعليم النشء لا يمكنه ولا ينبغى له أن يكون محايدًا فى موقفه من الدين، إن عليه لا أن يتخلص من الإيمان فحسب، بل أن يقوم بدور إيجابى فى الدعوة إلى عدم الإيمان بوجود إله، وأن يكون داعية متحمسًا إلى الإلحاد»

ونشرت مجلة «أوزبكستان مادانياتى» فى ٢٢ مارس ١٩٥٨ ما يأتى:

«إن من شأن الدين أن يحول بين المواطن السوفيتى، وبين أن يكون بناءً فى صرح المجتمع الشيوعى، والإسلام بصفة خاصة هو بحكم تقاليده وعاداته عدو للاشتراكية».

ويقول مولوتوف فى خطبة له: لن تنتشر الشيوعية فى الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز، وإلا إذا قضينا على الإسلام» يريد بالحجارة: الكعبة. متصورًا أن المسلمين يعبدونها، لا يؤدون عبادة لله حولها.

ويقول الرفيق «لونا شارسكى» وزير التعليم فى الاتحاد السوفيتى فى خطاب له: «نحن نكره المسيحية والمسيحيين وحتى أحسن المسيحيين خلقًا نعده من أكبر أعدائنا، إنهم يبشرون بحب الجيران، والعطف والرحمة، وهذا يخالف مبادئنا، فالحب المسيحى عقبة فى سبيل تقدم الثورة، فليسقط حبنا لجيراننا، فإن ما نريده هو الكراهية والعدوان، وحينئذ نستطيع غزو العالم»، وهو يتحدث عن المسيحية التى يعرفها..

---

(١) عن كتابى: إسلام لا شيوعية».

وأخيرًا يقول جمال عبد الناصر فى إحدى خطبه: لقد عرض على أن أكون شيوعيًّا فرفضت لأسباب ثلاثة:

أولها: أن الشيوعية ضد الدين.

ثانيها: أنها تفرض الهدم بالقوة وإنى ضد ذلك.

ثالثها: وليس أقلها شأنا إنى أومن بالقومية[١] وهى لا تؤمن بالقومية، ولذلك كان خرشوف يعلن تهكمه بشعار القومية العربية. لأن القومية عندهم هى قومية الشيوعية العالمية، وهى ضد كل وطنية وقومية وضد كل تجمع غير التجمع الشيوعى..

وهذا كله يؤكد أن الشيوعية لا تعايش دينًا ولا مذهبًا آخر، فإما هى أو لا شيء غيرها.. فهى لا تعايش المسيحية ولا الإسلام.. ولا تعايش القومية أو الوطنية[٢].

ومعنى ذلك أن الشيوعى لابد أن يتنازل عن دينه ووطنيته أو قوميته فى سبيل عقيدته الشيوعية، وبالتالى يتنازل عن مبادئ دينه وتعاليمه، وكل ما يتصل بثقافته، ليحل محل ذلك الشيوعية ومبادئها وثقافتها.

وهى لا تقبل حلا وسطًا.. يعنى لا ترضى أن يكون الإنسان شيوعيًّا، ومسلمًا أو متعاطفًا مع الإسلام.. وإذا عرف عن أحد من أعضاء الحزب الشيوعى أنه متعاطف مع الإسلام، أو متهاون فى حزبه، فصل من الحزب سريعًا.. وسموه مرتدًّا.. وللمرتد عندهم جزاؤه الرادع..

---

(١) ارجع فى هذا إلى كتابى «إسلام لا شيوعية» من ص ٥٧ وما بعدها مصدر سبق ذكره.

(٢) وقد حدثت مشادة حادة بين الرئيس العراقى عبد السلام عارف وبين خروشوف فى استراحة على البحر الأحمر بعد افتتاح السد العالى. بسبب تحدث الرئيس العراقى عن القومية العربية، فنال منه خرشوف بكلام «عيالى» لا كلام رؤساء.. كما حدثنى أحد السفراء الذى حضر هذه المحادثة. ولم استبعد من خرشوف هذا، وهو الذى رفع رجله فى الأمم المتحدة ووضعها على المنضدة التى أمامه فى وجه الجميع معبرًا بذلك عن رأيه فيما كان يسمع ويرى..

أخطر أنواع الغزو الثقافى:

فالشيوعية بذلك أخطر أنواع الغزو الثقافى، وهى الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين وتقتلعه من الجذور أى دين ولو كان وضعيًا كالهندوسية والبوذية، فإن من شأن الدين أن يحول بين المواطن السوفيتى، وبين أن يكون بناءً فى صرح المجتمع الشيوعى، والإسلام بصفة خاصة لأنه بحكم تقاليده وعاداته عدو للاشتراكية كما جاء فى مجلة أوزبكستان الشيوعية..

والشيوعية لا يمكن أن تنتشر فى الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التى يعبدونها فى الحجاز، وإلا إذا قضينا على الإسلام، كما يقول مولوتوف، كما ذكرنا من قبل.

ولقد بدأت الدعوة الماركسية الشيوعية فى منتصف القرن الثامن عشر، واعتنقها كثيرون فى أوربا موطنها الأصلى.. ولكن لم تتكون باسمها وعلى مبادئها دولة إلا بدءًا من أوائل القرن العشرين، حيث قامت ثورة فى روسيا ضد القيصرية ١٩١٧ وأسقطتها، وقبض على زمام الأمور فيها الشيوعيون، بعد أن وصل لينين من غرب أوربا إلى روسيا..

ومنذ ذلك الوقت قام باسم الشيوعية ومبادئها دولة تحتضنها هى: روسيا ودول أخرى بعد ذلك تسخر كل قواها لنشر مبادئها فى العالم..

تخاطب الغرائز:

وكان مما يؤسف له أن تجد الشيوعية مكانًا لها بين المسلمين المؤمنين بالله.

والشيوعية من أخص خصائصها أنها تخاطب الغرائز، وتطلق الوعود بتحقيق المساواة والحرية، والقضاء على الظلم، والانتصاف للفقراء والعمال الكادحين. وبذل الوعود لهم بأنهم الذين سيحكمون، إذا انتصروا على الحكم القائم فى أى بلد وينتقمون من الأغنياء!!

ومن شأن هذه الوعود أن يسيل لها لعاب الكثير من الناس فى أى بلد، ولو

بعيدًا عن سيطرة الشيوعيين. ولذلك لم أجد منذ بزوغ فجر الدعوة الإسلامية، وانتشارها كضوء الشمس وغزوها القلوب قبل أن تصل جيوش المسلمين إليها، لم أجد دعوة تسرى مثل هذا السريان، كالدعوة الماركسية الشيوعية، التى تجد لها أنصارًا ومعتنقين فى كل مكان، ولو على بعد شاسع جدًّا من مركز الدعوة الماركسية...

ولذلك تجد شيوعيين وأحزابًا شيوعية فى كل مكان على ظهر الأرض.. غزت قلوبهم الدعوة الماركسية، وصاروا منفصلين فى تفكيرهم وعواطفهم عن مجتمعهم، مرتبطين بالدولة الأم، التى قامت باسم الشيوعية لأول مرة فى التاريخ الحديث وعملت على احتضانها والدعوة إليها، يتلقون منها الوحى، ويتجهون إلى حيث تريد، ولو ضد أوطانهم ومجتمعاتهم.. ويعملون بكل ما فى وسعهم العمل على قيام حكم شيوعى فى مجتمعهم، مرتبط بالحكم الأم فى روسيا أو غيرها ومتحالف معه، أو دائر فى فلكه..

ومن هنا كانت الشيوعية أخطر أنواع الغزو الثقافى أو الفكرى..

وقد ابتلينا هنا، كما ابتليت بلاد كثيرة فى العالم: إسلامية وغير إسلامية بهذا الغزو، ووجدنا من الماركسيين هنا انفصالا تامًّا عن مجتمعهم، فى دينه وأمانيه ومصالحه الوطنية والقومية،حتى صاروا يمثلون فى الداخل جزيرة منعزلة عمن حولهم، وإن تكلموا لغتهم وعاشوا بينهم وحدثوهم بأمانيهم ومصالحهم.. وتمتعوا بخيرات وطنهم.

وقد تحدثت عن ذلك بشىء من الإيضاح والتفصيل مع سياق الأدلة العملية عليه من الواقع، وذلك فى كتابى «إسلام لا شيوعية» تحت عنوان استعمار فكرى أحب أن أضع هنا أمامك[١] بعضه:

استعمار فكرى:

«إن الشيوعية فكرة مثل كل الأفكار تفرض على كل معتنق لها أن يفنى فيها

---

(١) ص ١١٧.

وينسى كل شيء عداها: الدين والوطن والأسرة، والشيوعيون خيوط فى جميع أنحاء العالم تتجمع فى موسكو، تجذبهم وترسلهم، وتقيمهم وتعقدهم، فيصبحون ولا يهمهم قضايا أوطانهم أو دينهم، كما يهمهم الارتباط والتساند بعضهم مع بعض، من أجل الشيوعية... ولهذا فإنى اعتبر الشيوعية قبل كل شيء احتلالا فكريًا خطرًا يذيب شخصية الأمة ويفنيها..

وهو أخطر من الاستعمار المادى الآخر القائم على القوة.. فالاستعمار الإنجليزى مثلا لمصر لم يكن استعمارًا سبقته أفكاره فى قلوب الناس ورحبوا به، وإنما قام على القوة، ولذا كافحه الشعب من أول لحظة، وكانت طلقات المدافع على الإسكندرية أيام الثورة العرابية (سبتمبر ١٨٨١)، أول صوت يسجل هذه المقاومة وظلت مصر تقاومه عشرات السنين..

أما الشيوعيون فى أية دولة فهم خطر على كيانها الداخلى، لأنهم لا يستوحون مبادئها ولا تقاليدها بقدر ما يستوحون اتجاهات «موسكو» أو الصين ومبادئها.

وفى خطاب لجمال عبد الناصر يرد به على «خروشوف» رئيس روسيا ١٩٥٩م حين غضب على عبد الناصر اعتقاله للشيوعيين العرب فى مصر وسوريا، قال عبد الناصر: «إن الأحزاب المحلية الشيوعية فى جميع أرجاء العالم العربى تعمل بمساندة سوفيتية، ضد القومية والوحدة العربية[١]»

ولذلك وجدنا خروشوف عندما فوتح فى زيارته لمصر حينما كانت الأحوال حسنة، يعلن أنه لا يستطيع أن يزور مصر والشيوعيون معتقلون فيها، فأطلق سراحهم ووضعوا فى مناصب حسنة قيادية وغير قيادية، ومنحوا الرواتب الحسنة..

ويقول «ديمتروف» سكرتير الحزب الشيوعى البلغارى: «إن صدق الشيوعى هو موقفه من الاتحاد السوفيتى»

---

(١) ص ٢٠٧ من كتاب «عبد الناصر والعالم» لمحمد حسنين هيكل..

كما يقول: «إن العاطفة القومية خليقة بالتشجيع مادامت موجهة ضد بقايا الإقطاع أو ضد البرجوازية القومية، غير أنه تجب مقاومتها (أى العاطفة القومية) بمجرد اصطدامها بالحرية الشيوعية، أو بالاتحاد السوفيتى[١]»

ويعرف «ستالين» الرجل الدولى بأنه «الذى يظهر استعدادًا لأن يقوم بلا تحفظ ولا تردد وبدون شرط، بالدفاع عن الاتحاد السوفيتى، لأنه قاعدة الحركة الثورية العالمية[٢]» أى الشيوعية...

وفى كتاب «حقيقة وأسرار الشيوعية المحلية»[٣]، جاء قول للدكتور مصطفى محمود عن فترة وجوده بين الشيوعيين: «كانت موسكو تبدو لنا فى ذلك الحين الكعبة الأم لهذا الدين الجديد يعنى الشيوعية»..

ولا أريد أن أسترسل فأضع أمامك هنا ما ذكرته هناك من الأدلة على أن الشيوعية تمحو من ذهن الشيوعى وقلبه، كل ولاء لغيرها.. حتى ليبدو الشيوعيون فى كل مكان على رأى واحد مع رأى الدولة الأم الشيوعية، سواء كانت روسيا أم الصين، بصرف النظر عن رأى دولتهم، ومصالح وطنهم.

ولذلك تجد الآن أحزابًا شيوعية روسية، وأحزابًا شيوعية صينية من بين الشيوعيين فى بلاد العالم خارج روسيا والصين.. وإن كان كلا الحزبين يقوم على المبادئ الشيوعية الأصيلة المضادة للدين والقومية وغيرها من المبادئ الماركسية، لكن يفرق بينهما اتجاه الدولة السياسى التى يتبعها.. كما نرى ذلك واقعًا على الساحة العالمية.

ويمكن أن ترجع إلى هذا الباب فى كتابى السالف الذكر، لترى المزيد من الدلائل الواقعية التى مرت بنا وبمن حولنا، من تصرفات الشيوعيين التى تدل على الغزو العميق للشيوعية فى نفوسهم، حتى وجدناهم يناصرون الشيوعية ودولتها على ثقافتهم ووطنهم..

ولقد رفع هؤلاء الشيوعيون عقيرتهم باستمرار، بأن الدولة الشيوعية نصيرة

---

(١) الماركسية والغزو الفكرى للأستاذ جلال كشك ص ١٤٤.

(٢) الموقف الدولى والدفاع عن الاتحاد السوفيتى، ستالين ١٩٢٧.

(٣) للأستاذ لمعى المطيعى...

الشعوب، ومحبة للسلام، وحريصة على حريات الشعوب ضد الاستعمار.. الخ.

ولكننا رأينا أن هذه الادعاءات كانت تدارى وراءها ما ينقضها تمامًا، أو كانت كما يقال فى المثل الشعبى: «مثل كلام الليل يطلع عليه النهار يسيح.. أو يمحوه النهار».. فإن روسيا ليست نصيرة الشعوب كما تدعى، بل هى كأية دولة استعمارية، تلتهم الدول الضعيفة ما أمكنها ذلك.. وتفرض عليها سلطانها.

وهذه دول شرق أوربا المطحونة تحت الدبابات الروسية..

وهذه أفغانستان الدولة الإسلامية، ومأساتها على يد القوة الروسية الشيوعية، ماثلة أمام العالم كله...

ومن قبل قيام الشيوعية، استولت روسيا القيصرية على البلاد الإسلامية المجاورة لها..

«فاستولت على قازان واسترخان فى منتصف القرن السادس عشر، ثم امتد التوسع حتى وصل إلى القوقاز وسهول التركستان، فأراضى مسلمى الأورال التى احتلت ١٦٧٠، وجزيرة القرم ١٨٦٤، وبلاد القوقاز ١٨٦٤، وطشقند ١٨٥٩، وإمارة بخارى ١٨٨٢، والتركستان ١٨٨٤[١]»

وقد جاء النظام الشيوعى ١٩١٧، فغازل المسلمين بالوعود، واستعان بهم، حتى ثبت أقدامه، ثم استدار عليهم، وقضى على شوكتهم التى ساعدته، وأخذ يخطط لإبادة الإسلام، وينفذ ما خططه حتى الآن...

ولو أنه اضطر خلال الحرب العالمية الثانية للسماح ببعض المظاهر الإسلامية أن تظهر.. لمجرد الدعاية. وكذلك المسيحية..

ولا يزال شعب أفغانستان تنهال عليه روسيا بكل قوتها، وهو يقاوم منذ بضع سنوات حتى كتابة هذه السطور.. وتبيد عشرات الآلاف والبيوت لتثبت أقدامها، وترغم الشعب على الاستسلام لها، وهى مع ذلك نصيرة الحرية والشعوب !!.

---

(١) العالم الإسلامى والاستعمار السياسى والاجتماعى والثقافى ص ٤١٠-٤١٧ للأستاذ أنور الجندى عن وسائل مقاومة الغزو ص ٣٤.

حرب من كل ناحية

وهكذا يحاربون الإسلام وثقافته وأمته من الغرب والشرق، ويجد المسلمون المعاول تنهال عليهم بكل الطرق: الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.. ويلمسون التحيز لغيرهم ضدهم فى كل مكان.. وفى كل تصرف...

ومن الغريب أو من البلادة، أو قل البلاهة، أو ما شئت فقل عن المسلمين فى كل دولهم ومجتمعاتهم، أنهم لم يحسوا حتى الآن الإحساس الذى يولد فيهم رد الفعل القوى ضد خطر هذه الروح الصليبية والشيوعية من هنا أو هناك، ولا يتخذوا من المواقف سواء فيما يتصل بتوحيد كلمتهم، وتجميع قوتهم فى الداخل، أو فى مواقفهم الخارجية تجاه الغرب والشرق، ما يدل على حيوية فيهم، وتقدير لظروفهم، ولما يجب على كل إنسان حر أو شبه حر، من الدفاع عن نفسه وعن بقائه.

والمعاول التى تنهال على رءوسهم تتتابع وهم فى غمرة ساهون، وفى بلادة وبلاهة يعيشون.. وسلاحهم الذى فى يدهم إنما يستعملونه فيما بينهم، وضد بعضهم البعض.

﴿بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾[١]

فأمامهم طريق السلامة والقوة، ولكنهم عنه عمون، يؤثرون مصالحهم ونزواتهم على مصالح أمتهم ودينهم، ولذلك تنطبق عليهم سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا...

---

(١) وهذه الآية الرابعة عشرة من سورة الحشر نزلت فى وصف اليهود الذين كانوا يعادون الرسول فى المدينة، ولهذا الذى كان فيهم كان مصيرهم، وهو مصير كل أمة هذه حالها وصفتها «قوم لا يعقلون»، وما كان فى اليهود من سوء نزل بهم العذاب من أجله يمكن أن يكون فى أى مجتمع ولو من المسلمين يظهر فيه هذا السوء فالعذاب نزل على اليهود لا لجنسيتهم ولكن لأفعالهم..

وفى أيديهم من وسائل القوة، ما يمكنهم من أن يكونوا قوة ترهب غيرهم وتوقفه عند حده.. ولكنهم لا يستعملون فى مكانه ما وضعه الله فى أيديهم..

وسائل العزة طرقت، وتطرق أبوابهم، ولكنهم فى لهوهم داخل البيت لا يفتحون لها الأبواب..

كل النذر من حولهم تؤكد أنهم مستهدفون للغرب وللشرق معًا، وإن الحروب الصليبية المتعصبة وأهدافها، لا تزال تسيطر على الغرب، ويعاملنا على أساسها[1] وبروحها. ولكنهم لا يتنبهون ولا يتحركون «وماذا تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، ولا يتدبرون؟»..

وقد يبدو منهم كلام يشعر السامع أنهم حريصون وفاهمون، ولكننا لا نجد صدى لهذا فى الأعمال.

وإلا فقد مرت عشرات السنين، والمطارق تنهال فوق رءوسهم، والطريق واضح أمامهم، فماذا عملوا؟ ماذا عمله الكبير والصغير؟.

إن الغرب لم ولن يتخلى عن روحه الصليبية فى النظرة إلينا، وفى معاملتنا على مر السنين، وهذا القائد الإنجليزى «اللورد اللنبى» يقول حين دخل القدس فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ «اليوم انتهت الحروب الصليبية»!!

وزميله القائد الفرنسى «غورو» يقول عندما دخل هو الآخر «دمشق»، وذهب إلى قبر صلاح الدين، ليتشفى ويهزأ: «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين»!!

من هم الذين عادوا.. هم أبناء القرن العشرين.. وقد كانت الحروب الصليبية، وطردهم من الشرق قبل ذلك بقرون ولكن المرارة والحقد والإصرار على الثأر، ظل فى النفوس مئات السنين، حتى القرن العشرين[2]...

---

(١) راجع فى كتابى «الإسلام والغرب وجهًا لوجه» من ص ١١٦ عن «تسامح الشرق وتعصب الغرب» طبع بيروت ١٩٨٢.

(٢) كنت فى زيارة لتونس من ١١-٢١ نوفمبر ١٩٨٤، لحضور ملتقى فكرى إسلامى وفى يوم الثلاثاء ٢٠ نوفمبر اطلعت على جريدة «الصباح» التى تصدر يوميًّا فى تونس على الخبر الآتى تحت عنوان «ذوق»: =

وأبناء القرن العشرين منهم، هم الذين تصرفوا وتلاعبوا بنا على هذا الأساس فى أثناء هذه الحرب، وما بعدها، وحتى الآن.. لم يتخلوا عن روحهم الصليبية سواء فى حربهم لدولة الخلافة، أو فى تقسيم تركتها.. وفى التخطيط لزرع دولة يهودية بيننا فى فلسطين، فصدر ما يسمى «بوعد بلفور» فى أثناء هذه الحرب ١٩١٧ تمهيدًا لإنشائها..

وتقول الكاتبة الإسرائيلية «بربارة توخمان» فى كتابها «التوراة والسيف» وهكذا دخل الجنرال اللنبى إلى القدس ١٩١٨ فنجح حيث كان «ريتشارد» قد أخفق، ولولا ذلك الانتصار لما كانت إسرائيل حقيقة واقعة[1]..

لأن وعد بلفور الانجليزى، جعل الانجليز يحرصون على الانتداب على فلسطين وحكمها بعد ذلك، ليمهدوا الأمور لقيام الدولة اليهودية، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ١٩٤٨م حين أنضجوا «الطبخة».

إن الغرب حرص فى سياسته نحو البلاد الإسلامية على الأخص، على أن يحرث الأرض بمحراثين وبسلاحين: سلاح الفكر وسلاح المدفع.. سلاح هادئ فى ثياب مصطنعة غير عدائية، وسلاح يدوى ويقهر ويخيف.

وهو ماض فى سياسته هذه حتى الآن، برغم كل ما يعلنه من شعارات العدل وحقوق الإنسان، وعدم التعصب..

= «الوفد البرلمانى العربى الذى كان يقوم بزيارة لإسبانيا مؤخرًا ذهب إلى «غرناطة» المدينة الأندلسية الشهيرة، هناك استقبلوا الوفد استقبالا رائعًا، وأهدوه هدايا فى لفافات جميلة، وعندما فتح أعضاء الوفد الهدايا، وجدوها تحتوى على نسخة أنيقة من إعلان استسلام العرب فى غرناطة ١٤٩٢ م، هل هذا من الذوق؟

وكان هذا هو التعليق الذى استطاعته الصحيفة فى الجو الذى تصدر فيه.. ولا أريد أن أعلق، بل أترك لك التعليق، أترك لنفسك الشعور به، لأنه أكبر من أن يصور فى كلام مهما يطل.. وكذلك يفعلون ١٩٨٤، بعد مرور نحو خمسمائة سنة!!.

(١) ص ٢٩ من سلسلة كتب «دعوة الحق» العدد ٥ للدكتور محمد حسان إصدار رابطة العالم الإسلامى. وريتشارد قلب الأسد هو الذى هزمه صلاح الدين..

الحرب الصليبية العاشرة:

وقد أعجبنى ما كتبه الكاتب والمحلل السياسى الكبير الأستاذ أحمد بهاء الدين فى مجلة «العربى» الكويتية، وهو رئيس لتحريرها فى العدد ٢١٣ فى شعبان ١٣٩٦هـ أغسطس ١٩٧٦م، فى مقاله الرئيسى بعنوان «نحن نعيش الحرب الصليبية العاشرة»، أقتطف منه ما يخص موضوعنا وحاضرنا الآن[١] لأهميته، فقد بدأ بسرد للحروب الصليبية الثمانية، منذ بدأت حتى انتهت بهزيمة الصليبيين وجلائهم عن الشرق. ثم قال:

«وانتهت تلك الصفحة التى دامت قرونًا وسميت باسم الحروب الصليبية، وقد انقرضت ممالك اللاتين المصطنعة، وعادت البلاد إلى أصحابها، وإن ظلت مرارة تلك المرحلة فى نفوسهم قرونًا، يؤلفون فيها ويعودون إليها، ويدرسونها فى مدارسهم، من وجهة نظرهم طبعًا..

ولكن هل انتهت القضية عند هذا التاريخ؟

كلا، فإننا نعيش صورة جديدة منها فى الحاضر..

ومن حقنا أن نضيف للحروب الثمانية المسجلة فى كتب التاريخ حربين أخريين ربما تحت نفس العنوان:

فى فترة ما ظهرت الإمبراطورية العثمانية، التى كانت آخر إمبراطورية ضمت تقريبًا كل بلاد المسلمين، وكانت بالذات غير ما سبقها من إمبراطوريات إسلامية، فقد قامت على الفتح والقهر، وكانت تنظر إلى البلاد الإسلامية نفسها نظرتها إلى «المستعمرات. كانت فى الداخل مستبدة ظالمة مظلمة، لم تساهم فى الحضارة الإسلامية بشىء، ولكنها كانت ذات بأس عسكرى منظم قوى.

فبعد أن فرغت أوربا من إخراج مملكة الإسلام المتحضرة المزدهرة من إسبانيا غربًا، إذا بها تواجه - وبعد هذه الحروب الصليبية كلها - خطر الغزو

---

(١) ارجع إلى ص ١٥٤ من كتابى «الإسلام والغرب وجهًا لوجه» إلى ص ١٧٤ وإلى هذا العدد من مجلة «العربى».

الإسلامى أو التركى من الشرق، بعبور الأتراك من آسيا إلى أوربا، واحتلال البلقان بأكمله، والوصول إلى حدود امبراطوريات روسيا والنمسا وغيرها.. ومر وقت طويل، والإمبراطورية العثمانية تشيخ، والعالم الإسلامى والعربى يتدهور ويتحلل، وتسدل عليه ستائر الظلم والإظلام».

هذا فى حين بدأت أوربا عصر النهضة، وقضت على الإقطاع، وبدأ عصر الخروج إلى مستعمرات أخرى بعيدة، وعصر الصناعة فى أعقابه يغذيه ويقويه. صارت أوربا أقوى قوة فى العالم، هى سيدة المال، وسيدة التجارة، وسيدة الصناعة، وسيدة البحار.

وقد وصلت قوتها وحضارتها إلى الهند وأستراليا شرقًا، إلى أقصى أطراف أمريكا الجنوبية غربًا وجنوبًا.

ولكن الجوهرة الثمينة: «الشرق العربى»، لم تفارق خيالها، وحفر قناة السويس زاد من أهميتها، ومن هنا يمكن القول: إن الحرب الصليبية التاسعة قد بدأت منذ انحلالٍ الإمبراطورية العثمانية، إذ بدأت إنجلترا وفرنسا وروسيا تدعى كل منها حقًا فى حماية أقلية من الأقليات فى العالم العربى؛ انتحالا لأسباب التسلل والتدخل، ثم صراع إنجلترا وفرنسا على مصر، وفوز إنجلترا بمصر وقناة السويس باحتلالها مصر، الأمر الذى لم تقو عليه الحملات الصليبية كلها، وخداع الإنجليز للثورة العرابية، واتفاقية «سايكس بيكو» التى قسموا بها العالم سرًا بينهم، ووعد بلفور لليهود بوطن قومى فى فلسطين.

هذه السلسلة من الأحداث الغريبة، والتى استغرقت فى مجموعها ما يقرب من قرن من الزمان، وتوجت بدخول «اللورد اللنبى» القدس، ودخول الجنرال غورو» الفرنسى دمشق، تكون فى مجموعها ما يمكن أن نسميه استنادًا إلى التاريخ الذى سردناه «الحرب الصليبية التاسعة»، وهى أول حرب تحقق أغراضها كاملة، منذ اندثرت ممالك الصليبيين فى الشرق قبل ذلك بنحو ستة قرون.

طبعا كثير من الظروف تغيرت، والأفكار الدينية لم تعد هى الحافز فى أوربا،

بل صارت المصالح السياسية والاقتصادية، هى الأساس السافر لكل شيء، ولكن عندما دخل «الجنرال غورو» دمشق، وهو قائد الحملة الفرنسية فى الحرب العالمية الأولى، ووقف أمام قبر صلاح الدين الأيوبى، لم ينس أن يقول كلمته الشهيرة: ها قد عدنا يا صلاح الدين.

فالجنرال «غورو» حين نطق لسانه بهذه الكلمة، وهو يقف على قبر صلاح الدين، كان يعرف طبعًا أنه جاء غازيًا لاستعمار الشرق، ولكن غلب عليه ما تعلمه فى المدرسة وما وراءه من تراث، فخفق قلبه، ونطق لسانه بما طاف فى خاطره فى تلك اللحظة.

وسواء قالها بالمعنى الدينى، أو بالمعنى العسكرى، أو بالمعنى الحضارى، فلا شك أن العناصر الثلاثة كانت متداخلة، وهو يقول هذه الكلمة، وإن تغلب فيها عنصر على عنصر آخر. دام هذا النظام الذى أسفرت عنه الحرب التى أسميناها بالحرب التاسعة، دام هذا من ١٩١٩ إلى ١٩٤٨..

كانت هناك حركات وانتفاضات، وشبت ثورات شتى فى هذا القطر العربى أو ذاك، ولكن كل هذه التحديات والثورات والانتفاضات، لم تغير كثيرًا من وضع المستعمرين الإنجليز والفرنسيين، وفى خضوع السلطات المحلية لحكمهم...

على أن الحرب العالمية الثانية قد غيرت الظروف الدولية تغييرًا عميقًا.

لقد ظهر الاتحاد السوفيتى والمعسكر الشرقى، ممتدًا إلى منتصف أوربا بالضبط ومهددًا ما عرف باسم «الحضارة الغربية المسيحية»، أو المعسكر الغربى الذى انضمت إليه وتولت زعامته الولايات المتحدة.

وشبت حركات التحرر فى العالم، وقامت الثورات، وشعرت أوربا بالنسبة للشرق أن وجودها فيه مهدد بالزوال، وأن المسألة مسألة وقت.

وكان هذا الشعور قديمًا، ومنذ احتلوا الشرق ١٩١٩. ففى وثائق مؤتمر «فرساى» بعد الحرب العالمية الأولى، مذكرة ينصح الإنجليز فيها أمريكا بالموافقة على إقامة وطن لليهود فى فلسطين، لأن مثل هذا الوطن (على نمط الممالك اللاتينية القديمة) له صفة قابلة للدوام، وسوف يكون خير وسيلة لحماية

قناة السويس لحساب الغرب، فهى نفس فكرة إقامة دولة فى قلب الشرق، تحرس مصالحهم، ويمسكون منها بخناق العالم العربى...

نفس ما ترجمه وزير الطيران الأمريكى السابق «سمنجتون» حين وصف إسرائيل: «بأنها بمثابة حاملة طائرات غير قابلة للغرق»[١].

لقد وجدوا فى ظهور الدعوة الصهيونية وسيلة مواتية، لأنهم صاروا إلى وقت لم يعد ممكنًا أن يقنعوا فيه شعوبهم بحمل الصليب والذهاب للشرق تحت اسم الحروب المقدسة، والقدس مفتوحة للحجاج إليها من كل مكان، والحروب الدينية لم تعد مقبولة، ولكن ها هو مجتمع أفرزته أوربا، وإن كانت قد اضطهدته، ولديه حافز قوى للرجوع إلى مملكة القدس القديمة، فالفرصة سانحة لإقامة قاعدة غربية فى قلب الشرق.

لقد ذبحوا اليهود فى القدس ومنعوهم من الإقامة فيها من قرون، واضطهدوا اليهود فى بلادهم الأوربية بشتى أنواع الاضطهاد، ولكنهم الآن صاروا يرون فى إقامة دولة يهودية دينية هدفًا أساسيًا وساميًا...

وقد تزايدت أهمية المنطقة بسوقها التجارية الضخمة، وبموقعها الإستراتيجى الخطير، خصوصًا بعد ظهور الاتحاد السوفيتى فى الشرق، وفوق هذا طبعًا البترول، الذى لو انتقل من يد إلى يد – كما قال كيسنجر صراحة – لانقلبت كل موازين القوة فى العالم.

---

(١) ويبدو هذا لنا فى احتضان الولايات المتحدة بالذات لإسرائيل، بعد أن أسرعت كل دول العالم شرقها وغربها فى الاعتراف بها حين قيامها ١٩٤٨، ويظهر لنا فى التعهدات التى يبذلها المرشحون للرياسة فى الولايات المتحدة، بضمان بقاء إسرائيل متقدمة ومتفوقة على العرب كلهم، وفى المعاهدات التى تبرمها الولايات المتحدة الآن معها، ولا تنسى مدها بجسر جوى يحمل مختلف الأسلحة حين انهزمت أمام الجيش المصرى فى أكتوبر ١٩٧٣، ويصرح «كيسنجر» وزير خارجيتها بأن بلاده لا تسمح لمصر بالتغلب على إسرائيل، ولو دخلت بلاده الحرب ضد مصر، بل إنه هدد الرئيس أنور السادات بذلك فى وقتها، حتى وافق على إيقاف الحرب وقال إننى غير مستعد لحرب أمريكا... ولماذا لا يستمرون فى احتضانها، وقد وجدوا خطتهم من زرعها فى قلب العالم العربى تنجح لآخر مدى؟ ويساعدها العرب أنفسهم على نجاحها بتفرقهم وعدائهم بعضهم لبعض.

وهكذا تضافرت العوامل لبدء الحرب الصليبية العاشرة:

«الحرب العاشرة التى بدأت منذ إقامة دولة إسرائيل ١٩٤٨ وما زالت مستمرة الآن، وستستمر طويلا...

إننا لم نتحدث عن الحروب الثمانية المسجلة فى كتب التاريخ إلا بإيجاز، وقد كان بعضها قصير العمر، وبعضها طويلا، استغرق أجيالا، وشمل عدة حروب فى حقبة واحدة بهذا المعنى نقول: إننا منذ ١٩٤٨ ونحن فى الحرب العاشرة.

لقد حاربت إسرائيل العرب عدة مرات حرب ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، أكتوبر ١٩٧٣.

كانت لكل حرب ظروفها وملابساتها، وهزم العرب فيها جميعًا إلا حرب ١٩٧٣، ولكن يجمع بينها صفات كثيرة أخرى. فكلها كان بتأييد ساحق – على وسرى – من الغرب، وكلها كان فيه الخصوم يستفيدون من الخلافات العربية، وكلها كانت تستهدف توسيع رقعة إسرائيل، وفرض وجودها على العرب بالقوة.

وقد كانت تتخلل هذا كله لحظات من السلم المسلح، أو الهدنة، أو اللاحرب واللاسلم، ولكنها حين تنظر إلى مجموعها نجدها حربًا واحدة فى فصول ووقفات كثيرة.

وآخر معركة من معاركها إلى الآن هى الحرب الأهلية اللبنانية.

صحيح أن هناك تناقضات عربية كثيرة، وصحيح أن هناك بعد ذلك تناقضات لبنانية فلسطينية، ثم تناقضات لبنانية بحتة.

ولكن الذى لا شك فيه أمران:

الأمر الأول: أن هذه الحرب الأهلية سببها وجود إسرائيل، وطردها للشعب الفلسطينى، ورفضها حتى الاعتراف بوجوده، ومحاولتها المستمرة لعرقلة أى جهد سلمى، مع الاستمرار فى تهويد ما غزته من أراضى دول عربية أخرى، وهذا كله يخلق توترات على الجانب الآخر من الحدود، انفجرت مرة فى الأردن، ومرة أخرى فى لبنان.

«الأمر الثانى: أن هناك أياد أجنبية – إسرائيل؟ أمريكا؟ قوى أخرى؟ – لعبت دورًا فى إطالة هذه الحرب الأهلية البشعة[١] فى لبنان وأن هناك من تعمدوا تلوينها باللون الدينى إذكاءً لروح الصليبية القديمة فى الغرب. وهناك من فكروا فى التقسيم؛ بمنطق ما سبق حدوثه فى ظروف سابقة».

ثم تحدث عما قاله من قبل بصراحة بخصوص إسرائيل وفلسطين ولبنان ثم قال: «هذه بعض الحقائق الأولية التى يجب أن يعرفها كل مسلم، حتى ولو لم يكن متدينًا، ويعرفها كل مسيحى شرقى، يصاب بما يصاب به المسلمون فى أوطانهم، لأن هدف الغرب ليس مجرد الدين وحده، بل البلاد الإسلامية بخيراتها، وكل سكانها – والمسلمون على الأخص – ليضعفهم ويمتصهم، باعتبار أن قوة الدين فى قوة المعتنقين له، والمتمسكين به، وباعتبار أن المسلمين قوة لها خصائصها، وهم لا يحبون أن يخضعوا لقوة أخرى تتحكم فيهم.

على أن الذى ينزل بالمسلمين فى دولهم، ينزل بالتالى على المسيحيين الشرقيين من أهل هذه الدول، وينعكس عليهم، مما جعلهم يقفون صفًا واحدًا مع المسلمين ضد هذا التهجم الغربى..

وأعود فأقول: «ليس هدفى من وضع هذه الحقائق أمام كل مسلم. أن أثير فى نفسه روح التعصب الأعمى – كما قلت من قبل – بل روح الحذر واليقظة، وفهم الأمور على حقيقتها، دون انخداع بأى قول معسول، أو مظهر براق، أو اتهام مغرض مكذوب».

والهدف الذى يوضحه ويرمى إليه الكاتب والمحلل السياسى الكبير، هو أيضًا هدفى مما أكتبه وأتحدث به دائمًا، لأوقظ المسلمين للحقائق المتراكمة حولهم. وأرجوا أن يدركوها ويعملوا لها.. ولا يتركوا عدوهم يتسلل إلى بيوتهم وأفكارهم... تحت أى شعار...

---

(١) كتب الأستاذ أحمد بهاء الدين هذا بعد قيام الحرب بنحو سنة، وذلك ١٩٧٦ ونحن الآن ١٩٨٥، وحين أدان جميع أعضاء مجلس الأمن أسرائيل، وطالبها بالانسحاب فى أغسطس ١٩٨٤، تقدمت الولايات المتحدة بـ«فيتو» ضد القرار، حتى تبطل مفعوله ولا تزال تفعل مثل هذا حماية لإسرائيل.

وليأخذوا من العلوم والصناعات ووسائل التقدم المادى ما استطاعوا، فإن ذلك واجب دينى ووطنى على ألا يخدشوا بذلك دينهم وثقافتهم وتقاليدهم الأصلية، وآدابهم العريقة...

مدى تأثرنا بالغرب:

لقد كانت مصر بسبقها الدول الإسلامية فى الشرق، فى الأخذ بأساليب النهضة وبموقعها الجغرافى من أوربا وبإرسالها البعثات للتعلم فيها، وبصلاتها التى كونها الحكام مع الغرب، كانت مصر بذلك وبغيره، أرضًا خصبة لنقل الحضارة والتقاليد، والثقافة الأوربية إليها...

قام بذلك الغرب وحكامه، بقدر ما قام به المصريون المستغربون، الذين كانوا دعاة للثقافة الغربية بيننا، وكانوا أعلى وأقوى صوتًا وتأثيرًا من الغربيين أنفسهم... بعد انبهارهم بالغرب وانهيارهم داخليًّا أمامه، فرأوا أن علينا – إذا أردنا النهوض واللحاق به – أن نسير على منواله فى كل شىء...

ولو أنهم كانوا على قدر من التماسك والولاء لأصالتهم، لركزوا دعوتهم على أن نأخذ من الغرب العلوم والصناعات والنظم التى نهضت به، قبل أو دون أن نأخذ منه ثقافته وتقاليده...

فالنهضة فى الغرب إنما قامت على اقتباس الأساس العلمى والصناعى من الشرق أولا، لا على اقتباس الروح الإسلامية منه، والعلم والصناعة والجدية فيها، سهل نقلها، والاستفادة السريعة منها... دون أن نمس عقيدة أو تقليدًا كريمًا.. كما فعلت اليابان وغيرها من الدول التى نهضت...

ولأمر ما أراده الله بمصر، رأينا صوت الذين درسوا على الغرب التاريخ والفلسفة والاجتماع والعلوم النظرية بعامة، أقوى وأحد وأسبق من أصوات الذين درسوا العلوم والصناعات هناك... فى الدعوة للاقتباس من الغرب خيره وشره وحلوه ومره...

ورأينا تأثرنا بالأفكار النظرية أكثر من تأثرنا بالدعوة العلمية[(١)]...
ورأينا - كما يقول الأستاذ «أبو الحسن الندوى»[(٢)]:

«إن كثيرًا من الجامعيين فى مصر رجعوا متشبعين بروح الغرب، يتنفسون برئته، ويفكرون بعقله، ويرددون فى بلدهم صدى أساتذتهم المستشرقين، وينشرون أفكارهم ونظرياتهم فى إيمان عميق، وحماسة زائدة، فلا يقرأ إنسان لعالم مستشرق فى الغرب بحثًا، ولا يعرف له نظرية، إلا ويجد أديبًا أو مؤلفًا فى مصر يتبنى هذه النظرية بكل إخلاص ويشرحها، ويدعو إليها بكل لباقة وبلاغة مثل: بشرية القرآن، وفصل الدين عن السياسة، وأن الإسلام دين لا دولة، والدعوة للعلمانية والشك فى مصادر العربية الأولى، والشك فى قيمة الحديث العلمية، وإنكار مكانته وحجيته ومكانة السنة فى الإسلام، والدعوة إلى تحرير المرأة ومساواتها[(٣)] بالرجل، وكون الفقه الإسلامى مقتبسًا من القانون الرومانى، ومتأثرًا به فى روحه وسبكه، والدعوة إلى الحضارات السابقة على الإسلام، وتمجيد العصر الفرعونى، والدعوة إلى العامية والتأليف بها، واقتباس الحروف اللاتينية، والتقنين المدنى العربى على أساس القانون المدنى الغربى... إلخ».

«وإنما نرى ظلال الفكر الغربى وارفة ممدودة على العقول والأقلام العربية

---

(١) يقول الأستاذ «برنارد لويس»، أستاذ فى جامعة لندن فى مقال له ١٩٦٣ «إن العمل المبتكر الأصيل فى مجال العلوم التطبيقية لم يتقدم فى الشرق الأوسط مثل ما تقدم فى الصين واليابان والهند - ونضيف الآن وكوريا وفرموزا -، لذلك يلاحظ بون شاسع بين الشرق الأوسط والدول الأوربية المتقدمة.. بون أوسع مما كان قبل قرن أو نصف قرن حين بدأت عملية «التغريب فى الشرق الأوسط» ص ١٣٣ المصدر الآتى.. تأمل.. وانظر إلى خيبتنا العلمية بجانب خيبتنا الثقافية على يد رجال منا.. الفرق بيننا وبين أوربا الآن من الناحية العلمية والصناعة أوسع مما كان من قبل، حين بدأت عملية التغريب، وكان من المنتظر أن ينمحى هذا الفرق أو يضيق... وفى المقابل من «خيبتنا» العلمية، تجد «شطارتنا» ومهارتنا فى تقليد المظاهر والتيارات المتفسخة التى لا تنهض بأمة مثلنا فى حاجة إلى النهوض، ولذلك لما زرت بعض دول أوربا، ولمست الجدية والنظام فيها مع ما لمسته من أشياء لم تعجبنى وقارنت ذلك بما يجلبه لنا المقلدون للغرب قلت: ليتهم قلدوا فى النافع هناك كما قلدوا فى الضار، إذن يحصل شيء من التعادل على الأقل.

(٢) فى كتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية فى الأقطار الإسلامية» نشر دار الندوة للتوزيع - بيروت ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م الطبعة الأولى ص ١٣٠.

(٣) مع أن الغرب وحتى الآن لم يصل إلى ما وصل إليه الإسلام من احترام المرأة وإنصافها. انظر كتابى الإسلام والغرب.. فما يختص بالمرأة.

مسيطرة عليها، سيطرة الأشجار الكبيرة على الحشائش الصغيرة، منعكسة فيها انعكاس الشمس فى المرآة الوضيئة، وقد شهد بذلك عالم مستشرق عرف الشرق الإسلامى وعرف تياراته الفكرية معرفة دقيقة وهو «هـ، أ، و، جب»، حيث يقول فى كتابه «أين يتجه الإسلام؟» أو «وجهة الإسلام»:

«وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح للنفوذ الغربى، ولمدى تغلغل الثقافة الغربية فى الإسلام، كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية.. علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التى ابتكرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية بعد أن تهضم وتصبح جزءًا من كيان الدولة الإسلامية، فتتخذ شكلا يلائم الظروف».

ولا نريد أن نقول من عندنا شيئًا حتى لا نتهم بالتجنى، ولكنا نترك تصوير تأثرنا بالثقافة العربية وحضارتها للدكتور طه حسين نفسه، حيث يقول فى كتابه[1] «حياتنا المادية أوربية خالصة فى الطبقات الراقية، وهى فى الطبقات الأخرى تختلف قربًا وبعدًا، باختلاف قدرة الأفراد والجماعات وحظوظهم من الثروة، وسعة ذات اليد، ومعنى هذا أن المثل الأعلى للمصرى فى حياته المادية، إنما هو المثل الأعلى للأوربى»..

«وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوربية خالصة، نظام الحكم أوربى خالص، نقلناه فى غير تحرج ولا تردد.. إلخ»

«والتعليم عندنا على أى نحو قد أقمنا صروحه، ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضى؟ على النحو الأوربى الخالص، ما فى ذلك شك، نحن نكون أبناءنا فى مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكوينًا أوربيًّا لا تشوبه شائبة».

ثم يقول «وكل هذا يدل على أننا فى العصر الحديث نريد أن نتصل بأوربا اتصالا يزداد قوة من يوم إلى يوم، حتى نصبح جزءًا منها ومعنى وحقيقة وشكلا».

ولذلك وجدنا طه حسين يبرر ذلك بأن العقلية المصرية ليست شرقية، وإنما

---

(١) «مستقبل الثقافة فى مصر» ١٩٣٨ ص ٣١، عن «الصراع بين الفكرة الإسلامية» سبق ذكره، للندوى ص ١٣٤ وما بعدها.

هى أوربية أو قريبة منها، والعقل المصرى لم يتأثر بالفرس ولا بالرومان ولا بالعرب والإسلام.

ويقول فى ذلك: «إن من السخف الذى ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءًا من الشرق، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية الهنود والصين»..

وعلى هذا لم يكن غريبًا عليه أن يدعو المصريين إلى اختيار الحضارة الغربية حضارة لهم، ومشاركة الغربيين - أعضاء الأسرة العقلية الواحدة - فى جميع مناهجهم ومقاييسهم وأذواقهم وأحكامهم فيقول:
«علينا أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة خيرها وشرها، وحلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب»[١]

وأن نشعر الأوربى بأننا نرى الأشياء كما يراها، ونقوم الأمور كما يقومها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها!![٢]

نعم.. وننسى كل مقوماتنا.. ونكون بذلك قد بلغنا رشدنا!!..
وإلى هذا المدى من الهبوط والمسخ يدعو الدكتور طه أمته، الإسلامية أن تنظر إلى الحياة بعيون الغرب ومزاجه وتحكم حتى على الأشياء التى يحرمها القرآن بالحل لأنها فى نظر الغرب مباحة!!.

وما أكثر ما يبيحه الغرب، ويحرمه الإسلام ويمقته، لكن لابد أن نتنازل عن الإسلام، ونحكم بحكم الغرب لنكون متحضرين. ولأن عقليتنا عقليته.. كما يرى الدكتور!!.

وهذا بلا شك من رجل اقتعد قمة الفكر والأدب العربى، يمثل قمة التحلل من الثقافة الإسلامية وحضارتها، وينبئ عن مدى ما فعله الغرب فى عقول ونفوس المصريين، حتى الذين كانت دراستهم حتى نهايتها أزهرية[٣].

---

(١) ص ٤١ مستقبل الثقافة فى مصر.

(٢) ص ٤٤ من المصدر السابق.

(٣) وصل الدكتور فى دراسته إلى امتحان الشهادة العالمية النهائية، ولكن لجنة الامتحان لم توافق=

وإن كنت أحب ألا يأخذ القارئ هذا كقاعدة عامة، فكم عاد من الغرب مصريون مسلمون وهم أقوى ما يكونون تماسكًا بثقافتهم الإسلامية والعربية، وإن لم يدرسوا فى الأزهر.. والناس أشكال وأنماط «وكل ميسر لما خلق له»، كما يقول رسول الله ﷺ.

وقد كان بعضهم مفتونًا بالغرب وردد عندنا أفكاره الغريبة عنا، ثم اعتدل وعاد إلى رشده وأحضان دينه وثقافته.. ولكن كون إنسان مثل طه حسين يقول هذا، وهو يتصدر الزعامة فى الحياة الفكرية، ويلعب دورًا كبيرًا كذلك فى الحياة السياسية، يدل على ما وصل إليه نفوذ الثقافة الغربية فى نفوس المصريين(١).

وهذا بلا شك قد أثر على مجرى الحياة الاجتماعية، وعلى التعليم فى مصر قبل الجامعة وفى الجامعة.. مما خرج لنا تلامذة له قد مزقوا حجاب الاحترام والتقديس للقرآن والتعاليم الإسلامية.. وكان طه أمامهم فى هذا فيما كتبه، من إنكار وجود شخصيات من الأنبياء، حدثنا عنها القرآن، كإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، مما أحدث ضجة فى أيامه وإنكارًا شديدًا عليه حتى أحدث ذلك

= على منحه الشهادة، فأتيح له أن يكمل دراسته فى فرنسا. ويعود ليكون فى النهاية عميد الأدب العربى. وبهذه العقلية أو الروح المذابة فى أوربا: فهل ظل مؤمنًا بهذا أو تخلى عنه لما امتد به العمر؟ وتلاشت عقدته من موقف الأزهر منه؟.

(١) لأننى أرى أن حسن استقبال الأكثرية من المثقفين له، وترحيبهم بآرائه، واعتباره بصفة عامة من الأعمدة الكبرى لحياتنا الثقافية، بل عميد الأدب العربى، كل ذلك يدلنا على الأرضية المستغربة للمصريين الذين هيئوا له هذا كله.. ولعل مما هو أعجب من ذلك أن يكتب عنه كتاب بعنوان «قاهر الظلام» ثم يخرج هذا الكتاب فى مسلسل بهذا العنوان، وكان من المحاور الأساسية لدى الكاتب والمخرج فى هذا المسلسل: التركيز على ظهور الأزهريين من زملاء طه حسين بالمظهر الذى لا يليق، ليظهره فى مظهر البطل على حساب التهوين من شأن زملائه، وإظهارهم بمظهر يثير الإشفاق أو السخرية.. ونحن نجد فى مفكرينا عمالقة فى فكرهم ومعاصرين له، ولكنهم لم يجدوا حظًا كحظه، لأنهم فى مظهرهم الفكرى العام أصلاء فى ثقافتهم، يدعون دائمًا إلى الأصالة وإلى الاعتزاز بالشخصية المصرية، حتى رأينا عملاقًا كالعقاد – وأنا لم أجلس إليه مع الأسف ولم نتعارف – يخطب حين منح جائزة الدولة أمام رئيس مصر فى ذلك الوقت – جمال عبد الناصر – يقول: إذا كان لى أن أشكر أحدًا على هذا فإننى أشكر قرائى الذين أتاحوا لى هذا التقدير وهذا الموقف.. ولم يرض أن يتملق الرئيس وكان حاكمًا بأمره – كما عاش طه حسين يغدق على الملوك والرؤساء ألوانًا من الثناء والزلفى وكما عاش يردد ما ينفثه المستشرقون فى وجه الإسلام فى حين حرص العقاد على إبطال هذه السموم فى كتبه، وكذلك المرحوم مصطفى صادق الرافعى.. وهذه حقائق لا نريد منها الغض من دور طه حسين فى نواح أخرى..

أزمـة وزارية جـامعية بسبب تـدخل السيـاسة فى المـوضوع. وانتصـار رجال من الأحرار الدستوريين له، بحجة حرية الرأى وتوفيرها فى رحاب الجامعة..

لكنهم فى الحقيقة كانوا من الذين لا يهمهم من القواعد الأصيلة والركائز الأولى فى إسلامنا، بقدر ما يهمهم اتخاذ موقف سياسى، ضد رجال الحكم الآخرين الذين استنكروا عليه موقفه فى هز ثقة المسلمين بالقرآن، وإمكان تحللهم من تصديق ما جاء به من قصص مثل قصص إبراهيم وإسماعيل .

وذلك حين يقول(١) : «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى!! فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة، ونشأة العرب المستعربة».

ويذكر طه حسين أن اليهود انتحلوا هذه القصة، واستغلها «محمد» لإثبات صلة بين الديانتين اليهودية والإسلامية، ويذكر المرحوم «الشيخ الخضر حسين» فى رده على طه حسين، أن فكرته هذه نقلها عن مستشرق ويقول «وقد أخذ من هنا (أى طه حسين) يتحفز ليعلن الطعن فى القرآن بكلام استرق سمعـه من ذيل مقالة فى الإسلام»

ويذكر الشيخ ص ٧٧ ما قاله صاحب الذيل ص ٨ ليبين مقدار أخذ الدكتور منه، قال: «وحقيقة الأمر فى قصة إسماعيل أنها دسيسة لفقها قدماء اليهود للعرب تزلفًا إليهم... إلخ».

وقد وجد الدكتور أن الأسهل والأوفق لغرضه، أن يتبنى مثل هذه المطاعن، لا أن يردها وينقضها، ويكتب ذلك بعد أن يلقيه على طلابه فى الجامعة، ليثير حوله تلك الضجة التى حدثت حين إخراجه لكتابه، ويصير من زعماء الفكر الحر، وزعماء الأدب العربى.. ولم يكن مثل هذا التهجم ليروج ويتعصب له حكام

---

(١) ص ٢٦ من كتابه «فى الشعر الجاهلى» كما جاء فى كتاب نقض كتاب فى «الشعر الجاهلى» ص ٧٦ للمرحوم الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر فى الخمسينات وقد رد فيه على طه حسين بكتابه هذا، طبع ونشر المطبعة السلفية ١٣٤٥ هـ.

ووزراء، يحدثون أزمة وزارية وجامعية، لولا أن هؤلاء مثله، يسيرون فى زفة الغربين ولا يهمهم أن يرمى القرآن بالكذب والرسول بالتحايل. متمسحين بحرية الرأى، حتى فى مثل هذه!!.. وما كـان هذا غـريبًا عـلى أناس رضعـوا من ثدي واحد، وصاروا أبناءً لأمهم من الرضاع يؤدون لها واجب الولاء والوفاء، ولو على حساب أمهم الأصيلة.

يقول المستشرق هـ. أ. ر. جب[1]:

«ليس هناك طالب ذكى يقضى ثلاث أو أربع سنين، فى عاصمة أوربية، مختلطًا بأهلها كل يوم، وقارئًا ما يكتبون: خيره وشره، من غير أن تتشرب نفسه شيئًا أكثر من قشور المدنية الغربية، ثم عاد الطلبة: أفرادًا وبعوثًا، لا بدراسات فنية فحسب، ولكن بجراثيم الأفكار السياسية، بل بجراثيم العادات الاجتماعية أحيانًا مما كان متضاربًا مع تقاليدهم الموروثة. وقد كان الأثر ضعيفًا فى الجيل الأول، ولكنه تضاعف فى الجيل الثانى، وأخذ يتضاعف باطراد»، على حساب ثقافتنا الأصيلة طبعًا!!

لكن الفرق يبقى دائمًا بين حامل الجراثيم، المستعد للتفاعل معها فتظهر عليه أعراضها، وبين إنسان عنده مناعة تحفظه من أن يمرض بها وتظهر عليه أعراضها.

وعلى قدر قوة الإنسان الصحيحة تكون درجة مناعته، قوة وضعفًا. وإن كان ذلك لا يمثل كل شيء فى هذه الناحية، ففيه عوامل أخرى نفسية تتدخل فى تكييف هذه المناعة.. لأن هناك أناسًا قد يحملون من تربيتهم الأولى قدرًا كبيرًا من المناعة، لكن تطرأ عليهم ظروف نفسية فى كبرهم، تغلب هذه المناعة أو تغطيها وتنفرد هذه الظروف بقيادته وتوجيهه، حتى إلى ما يناقض سمته واتجاهه فى الشطر الذى قضاه من حياته.. فكم رأينا كبارًا يتحولون من النقيض إلى النقيض.. ويتنكرون لما مضى من حياتهم.. وقد يعودون لظروف أخرى إلى

---

(١) فى مقدمة كتاب «وجهة الإسلام»، الذى كتبه عدة مستشرقين وأشرف عليهم «جب»، ثم ترجمه الاستاذ محمد عبدالهادى أبوريدة الطبعة الأولى ١٩٣٤ ص ٣٥.

سالف حياتهم الأولى.. هكذا نرى على شاشة الحياة أمامنا..

فلم يكن عجبًا أن يسقط الدكتور وأمثاله على آراء شاذة طاعنة فى القرآن، فيأخذ فى ترويجها لحاجة فى نفس يعقوب!! وتتغلب هذه الحاجة على كل ما تلقاه فى بيته الريفى المؤمن، وفى وسطه الذى تعلم فيه، حتى بلغ أوكاد يبلغ الذروة من تعلمه فى الأزهر، لولا علماء امتحنوه فى العالمية وأسقطوه، إن حقًا وإن إجحافًا..

لكنه خرج من امتحانه بكتل من الطغينة على هؤلاء العلماء، وعلى الهيئة التى يعملون فيها، وعلى الرسالة التى يعملون لها، فحولته إلى إنسان ينتهز المناسبات ليوجه سهامه إلى هذا كله، ليثأر لنفسه، كما يتصور، ثم يأخذ الناس بالظاهر منه، ويحكمون عليه بما تؤدى إليه «ظاهر الأوراق»، كما يقول السادة القضاة.. والله وحده هو الذى يعلم السرائر[1] ولكن يمكن القول فى هذا كله، إنه آثار الغزو الثقافى تجلى فى هذه الصورة وعلى يد رجل منا كبير!!

ليس وحده:

لم يكن الدكتور وحده فى هذا، وإن كانت الضجة التى ثارت حوله، قد

---

(١) لقد صحبته رحمة الله عليه فى زيارة للمدينة مع الوفد الثقافى للجامعة العربية ١٩٥٥ وكنت مقيًا بها ويدى فى يده، حين وقف أمام قبر الرسول وصاحبيه، أسمع خلجات نفسه يرددها لسانه بصوته الهادى المميز، فما سمعت أروع ولا أنفذ إلى القلب من دعائه ومناجاته وضراعته، وكذلك حين ذهبنا لزيارة «البقيع» وإلى ميدان سيد الشهداء «حمزة» رضوان الله عليه.. مما جعلنى أقول: لعله العناد الذى حمله على أن يقول ما قال، ولعله شىء آخر فى نفسه، وبعد شهور من هذه السنة، وفى أواخرها يفاجئنا بمظهر من مظاهر العناد، والأخذ بالثأر من الأزهر، حين طالب على صفحات «الجمهورية» بما سماه «الخطوة الثانية»، التى يدعو فيها إلى إلغاء المعاهد الأزهرية والاكتفاء بالمدارس العامة، كما كانت الخطوة الأولى «إلغاء المحاكم الشرعية» والاكتفاء بالمحاكم الأهلية أو الوطنية. ويشاء الله أن أقود الرد عليه فى مساجلات ظلت بيننا نحو شهرين أو أكثر على صفحات «الجمهورية» انتهت بتراجعه، متهمًا إيانا بأننا لم نفهم غرضه.. وكانت «حجة» وتعلة لتبرير التراجع وحفظ ماء الوجه، فقد كان يمكنه أن يقول ذلك من أول رد عليه، ولكنى اكتفيت بتراجعه، ولم أشأ أن أعلق عليه إشفاقًا بالرجل.. بل عرض على تلميذه المحرر بالجمهورية وقتها «الأستاذ سامى داود» أن أزوره للتخفيف عنه، فقبلت، ولكن لم تتم الزيارة لظروف..

وقلت يومها: يكفينى أن رأيى الذى أدافع عنه قد انتصر، ولا أحب سخائم النفوس، بل أحب أن أعيد الود الذى نشأ بيننا فى رحاب الرسول، وقد علمت من تلميذه أنه فى غاية التأثر.. ولكن شاء الله ألا نتقابل بعدها حتى لقى ربه..

ضخمت آراءه وضخمته أيضًا.. فهناك الكثيرون ممن ساروا على نمطه فى التأثر بثقافة الغرب على حساب ثقافتهم الأصيلة، سواء كانوا من أقرانه أو من تلامذته الذين رضعوا من أفكاره أو من غيرهم..

ولعل ما يلمحه القارئ حوله من مظاهر الحياة على اختلاف أنواعها يغنينا عن تتبعها وإبرازها، فالتأثر بثقافة الغرب وتقاليده ومذهبه فى الحياة ظاهر على سطح حياتنا، حتى ليظنه الرائى أو الملاحظ، أن هذه المظاهر شىء أصيل فينا مع أنه وارد وافد علينا وغريب!!

نموذج آخر:

ومع ذلك أذكر بعض هذه المظاهر كمثال، وأولها يتصل برجل فينا كبير وكان ولا يزال له دوره ورأيه فى تشكيل التعليم، وتشكيل ثقافتنا.. حتى صار فينا شبه مختص فى هذه الناحية..

وقد تكفل المرحوم الدكتور محمد محمد حسين أستاذ الأدب العربى الحديث بجامعة الإسكندرية بإثارة الانتباه إلى ما صدر تحت إشراف الدكتور الكبير المتخصص فى شئون تعليم الجيل الجديد من أولادنا، وقدمه لقرائه فى مجلة الأزهر، ثم فى كتابه «حصوننا مهددة من داخلها فى أوكار الهدامين»[1]، وذلك من خلال الكتب التى كانت تصدرها «مؤسسة فرانكلين»، مترجمة عن كتاب أمريكان، إلى اللغة العربية، والتى كان يشرف الدكتور المتخصص على إصدارها، تحت عنوان عام «كيف نفهم أطفالنا»، ويقدم لكل كتاب يصدر منها.

فيذكر الدكتور محمد حسين فى صفحة ٦٤ ما جاء فى العدد ١٢ من هذه السلسلة على سبيل المثال وعنوانه: «الطفل والأمور الجنسية» فيقول:

«قدم الكتاب فى صفحتى ٢٢، ٢٣ مجموعة من الأسئلة فى صورة اختبار يساعد الآباء - فيما يزعمه الكتاب - على تبين اتجاه الأطفال فى وضوح وجلاء، وعلى تقدير ما تنطوى عليه تصرفاتهم من خطأ أو صواب. ثم أثبت المؤلف

---

(١) ص ٦٢ الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ - ١٩٦٧م، نشر مكتبة المنار بالكويت..

الإجابة الصحيحة المزعومة عن كل سؤال فى ذيل الصفحة ٢٣.

ومن بين هذه الأسئلة سؤال رقم ٦ ونصه «هل ترى فى التعبير السافر عن المحبة ما ينبئ عن ذوق ردىء، أو ما يثير الحركة؟»، والخطاب هنا موجة للآباء بالنظر لتعبير أولادهم السافر عن المحبة..

وكان الجواب الصحيح فى نظر الأمريكى المؤلف: لا. فكيف ونحن فى بلد إسلامية تنكر ذلك التعبير السافر؟. كيف نوجه أطفالنا إلى ما يستساغ فى الوسط الأمريكى المنفتح جنسيًّا؟.

هنا الجناية فى نظرنا، فإن هذا التعبير السافر تعبير مستساغ فى الغرب، ولا ينكرونه هناك، لكن هل يستساغ عندنا ذلك دينًا أو من ناحية تقاليدنا؟

المؤلف يلقنك الجواب بأنه مستساغ، وينشر ذلك عندنا لتوجيه الآباء؟

«والسؤال التالى: هل تعتقد أن المواقف التى تتضمن ناحية جنسية تثير الضحك؟» والجواب الصحيح الذى أثبته الكتاب: «نعم»

فكيف؟: الضحك، أم الغضب والاشمئزاز؟

الأمر يختلف عندنا وعندهم..

لكن الذين يحملون رسالة الغرب، وينفقون عليها ملايين الدولارات، والذين يستفيدون من هذا منا، دون اعتبارهم جنس الثقافة والتقاليد الأصيلة عندنا، يؤيدون عدم المبالاة بهذا الموقف إلى حد الضحك، ولا يرون فى هذا شيئًا من العيب، ويقدمونه لجيلنا الجديد لكى ينشأ عليه.. وإلى هذا الحد!!

ويستمر الدكتور حسين فى سرد بعض أمثلة، مما جاء فى هذه السلسلة، التى يشرف عليها الدكتور المربى الكبير، فيقول ص ٦٧:

«جاء فى صفحتى ٨٧، ٨٨: «فى كل علاقة تقام بين فتى وفتاة يشعر كل منهما بعض الأحيان، بدافع يحفزه على التعبير عن حبه وتقديره للآخر بلمسة.. أو ضغطة على اليد، أو قبلة»، ثم يقول: «والرغبة فى الكشف عن المشاعر بهذه الطريقة والاستجابة لها أمر طبيعى»!!

هذا أمر طبيعى فى أمريكا، بل وأكثر منه طبيعى كذلك.. ولكن عندنا كيف يرضى الدكتور الكبير عن تقديم مثل هذا لنا ولأولادنا؟ ولنا ديننا وتقاليدنا، ويضع أمام الآباء المسلمين والشباب، أن مثل هذا التصرف أمر طبيعى لا غبار عليه؟..

وماذا لو تقدم شاب من شبابنا ممن يبيحون هذا ليصادق بنتهم، ويريد الشاب أن يعبر عن حبه وتقديره لها بهذا الأسلوب أمامه؟ كيف يعترض وهو يقر ويوجه إلى هذا؟

وإذا اعترض، فكيف سوغ لنفسه أن يوجه إليه[١]؟

وإذا لم يعترض فماذا يكون[٢]؟ وماذا نقول لأمثال هؤلاء الكبار المربين[٣]؟ وقد ارتقوا أعلى مناصب التوجيه والقيادة فى أخطر مكان؟

لا نقول لهم شيئًا، ولكن نقول لمن يمكن أن ينخدعوا بهذا الكلام: إن هذا أثر من آثار الغزو للقضاء على آدابنا وتقاليدنا، والارتماء فى أحضان التقاليد الغربية.. فاحذروا أن تكونوا فراشة تحترق فى لهيب المصباح.. ومن أراد أمثلة أكثر فليرجع إلى الكتاب «حصوننا» فقد سألت عن تلك الكتب (الفرانكيلية) فلم أجدها.

---

(١) خطر على بالى حكاية لطيفة: خطيب وقف على المنبر يخطب ويحث على البذل والعطاء، ومن كان عنده فضل قوت فليعد به على من لا قوت لهم، ومن كان عنده فضل ثياب فليعد به على من لا ثياب عندهم.. إلخ.. وانتهى من الخطبة، ورجع للبيت وأراد أن يغير ملابسه، فقالت له زوجته سمعت خطبتك وتأثرت بها فتصدقت بملابسك، وبكل شىء زائد عندنا.. فصرخ فيها: يا مجنونة الكلام هذا للناس وليس لنا..» وهذا لحسن ظنى بالدكتور..

(٢) حكى لى صديق أنه كان فى أمريكا وذهب لزيارة صديق مصرى يمكث هناك من فترة، فوجده فى حديقة منزله، فجلس معه، ثم دخل شاب يسأل عن بنته، فقال: بالداخل، فدخل ومكثا مدة، وأخذها وخرج، ومرا على الوالد وذراع كل يلتف حول الآخر دون أى كلام، ونظر الوالد إليها، وتلوى من الألم، وقال لصديقه: هذا هو الثمن الباهظ الذى ندفعه هنا.. ولم يطق الضيف المقام، وخرج يرثى حال صديقه ومصيره ومصير أولاده.

(٣) للحقيقة والتاريخ أقرر هنا أنه جمعنى مع الدكتور مجلس فسألته عن صلته بهذه الكتب التى أصدرتها مؤسسة فرانكلين هل يمكن العثور عليها الآن وفى أسلوب مهذب سألته: هل لا يزال مستسيغا لما جاء فيها مما يخالف ديننا وتقاليدنا؟ وبكثير من الألم أجاب بالنفى، وأنها كانت غلطة..

والذين تأثروا عندنا بما فى الغرب من هذه الناحية الإباحية كثيرون، لا سيما الذين باشروا هذه التجربة هناك، وعادوا يتمنون أن يجدوا مجتمعهم متفتحا يرضى غرائزهم، كالذى تركوه هناك، ومن أجل هذا يشجعون كل تيار يوفر لهم هذا الانفتاح، ويدعون إليه!!.

يقول مستر «سميث»[1] محللا حركة التنور والتسامح فى العالم الإسلامى «وإن من أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التى تسود اليوم فى العالم الإسلامى ومن أكبر عواملها: نفوذ الغرب.. فقد سافر كثير من الشباب المسلم إلى الغرب، واطلعوا على روح أوربا وقيمها، وأعجبوا بها إلى حد كبير، وينطبق هذا بخاصة على الطلاب الذين درسوا فى جامعات أوربا بعدد لم يزل يزداد مع الأيام، وهم الذين سببوا استيراد كثير من أفكار الغرب، وقيمة إلى العالم الإسلامى»

إلى أن يقول «وبينما قام بعض المسلمين لمقاومة هذا التيار، رحب به البعض الآخر سواء ممن وقع تحت تأثير هذه التربية رسميًّا، أو ممن رحبوا بهذا التيار بدافع من أنفسهم... إلخ».

وهكذا نرى أننا واقعون تحت ضربات مطارق متعددة.

* مطرقة المبشرين والمستشرقين، ومؤسساتهم بيننا وأفكارهم، التى ينشرونها لتوهين ديننا وثقافتنا، وإضعاف ارتباطنا بها.

* ومطرقة المستعمر الذى يريد التمكن من نفوذه، وإرضاء تعصبه، فيساند المبشرين والمستشرقين فى رسالتهم فينا من ناحية، ويعمل بسلطته على بث الروح والتعليم والنظم الغربية فينا من ناحية أخرى، وهاتان تمثلان الغزو الخارجى..

* ومطرقة من الداخل يمسك بها نفر منا تأثروا بهذا الغزو، ويهوون بها على رءوسنا،ويسيرون مع المستشرقين والمبشرين والمستغربين فى خط واحد، من حيث يدرون أو لا يدرون وهذه هى مطرقة «الاستغزاء».

---

(١) فى كتابه «الإسلام فى التاريخ الحديث»، نقلا عن كتاب أبو الحسن الندوى (الصراع) ص ١٨٦ سبق ذكره.

وثقافتنا الأصيلة تحت هذه المطارق - مطارق الغزو والاستغزاء - يتهشم رأسها، وتضيع معالمها.. واحدًا بعد الآخر.. حتى أصبحت ثقافتنا تعيش عيشة الغرباء المنكسرين، والأمثلة على ذلك كثيرة تحت نظر كل واحد منا، وكثيرًا ما تثير فيه السخط على المجتمع الذى تهاون، وتهاون المسئولون فيه، فى أعز شيء لدى الإنسان، وهو دينه وثقافته..

صورة أخرى:

وغير هذا وذاك نجد صورًا أخرى عليها طابع الثقافة الغربية، وغزوها لنواحى حياتنا، نجد ذلك فى الصحافة وأجهزة الإعلام الأخرى، التى يجد فيها المصرى ترويجًا لعادات وتقاليد الغرب، واتجاهاته فى الحياة، حتى نراها تخصص صفحات أو مجلات لملابس الغربيات صيفًا وشتاء، وطريقة حياتهم، دون مراعاة لوجهة نظر الإسلام...

ونرى السينما والتليفزيون يعرضان أفلامًا عربية وغربية لا تلتزمان فيها بمقتضيات الثقافة الإسلامية وآدابها، بل تسير مع الغرب وما يعرض فيه من أمور بعيدة عن آداب الإسلام وتقاليده، حتى ليبدو فى بعض الأحوال أن هذه الأفلام تعرض فى مجتمع غربى، ويستمر ذلك حتى كأنه أمر عادى فى حياتنا، مما يدل على مدى نفوذ الثقافة الغربية وتقاليد الغرب، وامتداده حتى الأوساط الشعبية، بعد أن كان مقصورًا على الطبقات العليا المثقفة محصورًا فى دائرتها..

وهذا - كما أرى - هو الخطر الحقيقى على ثقافتنا وتقاليدنا. لأن الذى يحمله ويروجه هو نحن، نحن الذين تأثرنا بالغرب، واندمجنا فى حياته، ونقلنا تأثرنا إلى هنا، ماثلا فى كلام وأعمال تهد جدراننا الثقافية وتقاليدنا، وتلغى وجهة نظرنا فى الحياة كمسلمين لهم ثقافتهم، أو وجهة نظرهم فى الحياة، وما يجب أن تكون عليه.

وإلا فبماذا نسمى هذا الانحلال العلنى فى ملاهينا، والمتستر أحيانًا وراء ستار شفاف خلف الجدران؟.

وإذا تحدث كبار المتخصصين عن سلوكياتنا وأخلاقنا، وبحثوا عن وضع معيار أو مقياس تضبط به هذه السلوكيات، وقعوا فى حيرة: أى معيار وأى مقياس

يزنون به هذه السلوكيات، ويضبطون وقعها حتى لا تكون نشازًا؟

هل يعتبرون ثقافتنا وآداب ديننا هى معيار الحكم على السلوكيات؟.

أو يعتبرون الثقافة الغربية ونظرتها للحياة هى المعيار؟.

إذا اتخذوا الأول كان هذا هو المنطق الذى يقضى به كوننا أمة إسلامية عربية.. ولكنهم سيواجهون ثورة ممن تأثروا بالغزو الثقافى الغربى الذين يعتبرون مسايرته عنوان التقدم والرقى.. واحتاج الأمر إلى حسم يضع الأمور فى نصابها، ولكن أين ومتى نجد مثل هذا الحسم..

وإذا اتجهوا إلى الثانى خالفوا منطق الأمة، وجنوا على ثقافتها وأصالتها، وحولوها إلى أمة غربية، منسلخة عن ماضيها وتراثها.. ومسخوها مسخًا أكثر. وهذا لن يمر بسهولة، ولكن لن يكون فى أمتنا مهما يبدو على سطحها من بثور، فإنها لا تزال تحتفظ فى عمقها بأصالتها..

هذا التنازع والتردد نفسه بين الغرب، وبين الأصالة فى نفوس الذين يخطون الطريق ويضعون المعايير والمقاييس، هو أكبر دليل على مدى تغلغل الثقافة الغربية فى أوساطنا وتأثرنا بها فى مجرى حياتنا.. ويعتبر نجاحًا بكل المقاييس للغزاة وأنصارهم بيننا فى اختراقهم حدودنا، وفى زعزعة أمننا الثقافى..

لقد وصلنا فى تفكير الكثيرين منا إلى حد أن نعتبر مظاهر الغزو الثقافى بيننا ضرورة من ضرورات الحياة.. مهما يكن فيها من مخالفات صارخة لثقافتنا وآدابنا، واعتبار كل من يقف فى وجه هذا الغزو رجعيًا ومتأخرًا، لا يريد لهذا البلد تقدمًا، بل يريد عزله عن العالم وما يجرى فيه.. إلخ!!

وكأن التقدم فى نظر هؤلاء هو فى مجاراة الأوساط الغربية، فى وجهة نظرتها للحياة ولو كان فى ذلك ذبح أو وأد لثقافتنا وخصائصنا..

وكأن التقدم عندهم هو فى إشاعة هذا التفسخ والانحلال الخلقى الذى يفد علينا من الخارج، وليس فى الأخذ بوسائل التقدم الحقيقى من أخلاق فاضلة، ومن علم وصناعة .

وينتابنا ويمزقنا الألم المرير، لأن الذى يروج هذا، ويقوم بعمل «الزفة» له، أناس منا كبار وصغار، جرفهم هذا التيار، فنسوا أصولهم، وقطعوا الجذور التى تربطهم بثقافتهم وأصالتهم، وصاروا يفضلون الهوية الغربية على هويتهم الإسلامية العربية.

ولقد كان هذا الذى يجرى على أرضنا - أرض العروبة والإسلام - دون رادع أو حاجز يوقفهم عند حدهم، من أقوى الأسباب فى حدوث رد الفعل الساخط فى نفس الأمة، والذى بدا من بعض شبابنا، كثورة مضادة وعنيفة، على كل الذين سكتوا عن كل ما يدور من تفسخ وانحلال، يناقض مناقضة صارخة، آدابنا وثقافتنا..

ولقد انصرفنا نلقى اللوم على رد الفعل، دون أن نلقى بالا إلى الفعل، الذى كان من أسباب رد الفعل..

وكان من الضرورى أن نعنى بعلاج الفعل والقضاء عليه أولا، حتى لا يكون هناك رد فعل له.. ونكون بذلك مباشرين للعلاج الصحيح. وَقَدَرْنا على الحمار ولم نضرب «البردعة» كما يقول المثل الشعبى..

ولكن وقوع الجميع فى منطقة نفوذ التيار الغربى الأجنبى، هو الذى جعلهم يلجئون إلى هذه المسكنات، بالعنف حينًا، وبالكلام حينا آخر، دون أن تمتد أصابعهم إلى الداء الأصيل .

إن محاولات مسخ هذه الأمة ومسخ ثقافتها، وإبعادها عن أصالتها لن تمر بسهولة إن لم نقل إنها لن تنجح.. فلابد للنائم أن يستيقظ، وللمخدر أن يضيق، مهما يطل وقت التخدير كما لابد للتائه أن يعود إلى أحضان أهله، ولو طال به الزمن..

وأمامى الآن مثل من واقع حياتنا، مر علىّ.

فقد جلب الحكام المصريون والمستعمرون الأجانب قانونًا من أوربا لنحتكم إليه، فى ظل المحاكم المختلطة (١٨٧٦)، والمحاكم الأهلية (١٨٨٣)، وسماه بعض وزراء تلك العهود وهو لا يزال طفلا فى نشأته بأنه (قانون مصرى) وظل هذا

القانون سائدًا بيننا منذ ذلك الوقت حتى الآن..

واعتبره القضاة والمحامون قانونًا مصريًّا.. وبنوا حياتهم على أساس تنفيذه وحمايته حتى صار موضع قداسة عندهم دون النظر إلى أنه لقيط عندنا فى بلادنا وفى بعضه اعتداء صارخ على ديننا وتقاليدنا..

لكن الأمة والأصلاء فيها ظلوا يشعرون بأنه قانون دخيل غريب لقيط، وظل لهم حنينهم إلى قانونهم الأصيل، إلى شريعتهم التى ظلت تسود البلاد والقضاء نحو ألف وثلثمائة سنة قبله.. وظلوا ينادون بأن يعودوا إلى أحضان شريعتهم، أو تعود شريعتهم ليستظلوا بها، حتى فى أشد الأيام سوادا وفى عنفوان النفوذ الغربى.. لم ييأسوا..

ولا أزال أذكر أننى وبعض زملائى فى كلية أصول الدين انتهزنا مناسبة تأليف وزارة «على ماهر باشا» ١٩٣٦ وتكوين لجان لتعديل القوانين فألفنا جماعة سميناها «جماعة الدفاع عن الإسلام» وكان هدفها الأول هو المطالبة بالاحتكام إلى الشريعة فى قوانيننا..

وبدأنا نعمل لهذا الهدف، وكتبنا، وزرنا بعض الشخصيات الكبيرة المشتركة فى هذه اللجان ممن نأمل فيهم التجاوب معنا.. مثل المرحومين: الشيخ أحمد بك إبراهيم رئيس قسم الشريعة ووكيل كلية الحقوق «جامعة فؤاد» فى وقتها، والأستاذ «محمد على علوبة باشا» من أجل هذا الغرض وغيرهم فوجدنا أمرًا عجبًا..

قال لنا المرحوم الشيخ أحمد إبراهيم إننى أحاول أن أدخل بعض القوانين الشرعية، ولكننى أجد صدودًا كاملا من أعضاء اللجان، بمجرد أن أعلن لهم أن هذا القانون مستمد من الشريعة. فلجأت إلى حيلة: هى أن أجهز بعض المواد من الشريعة، ثم أعرضها على اللجنة باعتبارها رأيًا لى، أو رأيا عثرت عليه فى أحد القوانين الخارجية، فكانوا يقرونها!! فإلى هذا الحد كان استبعاد القوانين الشرعية.. وكان الذعر منها فى ذلك الوقت.

ولا أزال أذكر كذلك أننا فى ذلك الوقت ونحن طلاب متحمسون رأينا أن

نقوم بمظاهرة من كلية أصول الدين بجوار مسجد الخازندارة فى شبرا، نطالب فيها ونهتف بضرورة العودة للشريعة، وخرجنا وغلفنا مظاهرتنا بالهتاف لجلالة الملك، لنحمى أنفسنا من «البوليس» ولكن ما إن وصلنا إلى «المدرسة التوفيقية» حتى تعرض لنا البوليس وأمرنا بالتفرق، وكنا نريد الوصول إلى قصر عابدين، فامتنعنا، فانهال علينا ضربًا بالعصى الغليظة وقبض على بعض منا..

ومرت الأيام والسنون أو عشرات السنين.. وبعض الذين كانوا أعضاء فى الجماعة وفى المظاهرة لا يزالون على قيد الحياة.. وكان منهم المرحوم شيخ الأزهر الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار، وأنا..

وحدث حين كنت وكيلا للأزهر، وقائمًا بأعمال شيخه الذى توفى - كان المرحوم الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود - فى أكتوبر ١٩٧٨.

حدث فى أواخر ديسمبر ١٩٧٨ أن دق جرس التليفون، وإذا بالمتكلم صديقنا الدكتور صوفى أبو طالب رئيس مجلس الشعب يقول لى: إننى آت إليكم لزيارتكم.

وجاء وطلب منى إخلاء الغرفة ليحدثنى فى أمر مهم. وبدأ حديثه بقول: كنت مع الرئيس محمد أنور السادات أمس، وجاء ذكر تطبيق الشريعة ومطالبة الشعب كله بذلك، حتى أخذ المواثيق على المرشحين حين الانتخاب بذلك، فقال: ولماذا لا تعملون؟ ابدأ ياصوفى فورًا فى العمل لهذا.

ولذلك جئت إليك لنعمل معًا فى تأليف اللجان، وتبدأ فتمدنى بمن تراهم من العلماء، على أن يقوم مجلس الشعب بهذه المهمة، وينفق عليها، ويجهز كل التسهيلات لعمل اللجان..

وبدأ العمل من وقتها، وشاركته وأنا وكيل للأزهر، ثم وأنا وزير للأوقاف وبعدها، وشاركه أيضًا شيخ الأزهر فى الإشراف على هذه اللجان بواسطة اللجنة العليا لها.

وفى رمضان ١٣٩٩ - أغسطس ١٩٧٩، دعا الرئيس السادات إلى اجتماع

العاملين فى الحقل الإسلامى من أعضاء الجمعيات وغيرهم به فى الإسماعيلية، وبعد أن انتهى الاجتماع وسرنا مع الرئيس نودعه إلى استراحته - النائب وقتها (محمد حسنى مبارك) الرئيس الحالى، وشيخ الأزهر المرحوم والدكتور صوفى، والمفتى (شيخ الأزهر الحالى) وأنا فقال الرئيس للدكتور صوفى.. لا تنتظر حتى تجهز كل القوانين، بل كلما تنتهى من قانون تعرضه على مجلس الشعب لإصداره، لكن قانون العقوبات بما فيه من الحدود أخره للآخر..

فقلت له: سيادة الرئيس نريد هذا القانون أولا، لا لمجرد التعصب للقانون الإسلامى، بل لأنه أيضًا من أكبر العوامل فى استتباب الأمن فى البلاد. فقال: أنا عارف، وهو فى رقبتى، لكنى أريد تأخيره لأختار الظرف الملائم لإصداره، وقد أديت الواجب عليك، وأنا سأؤديه أيضًا، وأنت تعرف، لكن وأنا حاكم ومسئول عنه، مسئول عن اختيار الوقت الملائم وأحب أن تؤخره يا صوفى الآن وتصدر القوانين الأخرى»

وقد ترك الدكتور صوفى رئاسة مجلس الشعب فى الشهور الأخيرة من دورته القصيرة الأخيرة فى أواخر ١٩٨٣، وكانت القوانين كلها قد جهزت وطبعت بمذكراتها التفسيرية وصالحة للعرض على مجلس الشعب.. بعد أن بذل كل إمكاناته فى إتمامها على النحو المطلوب، مما سيذكر له على أنه من أهم أعماله فى حياته..

ولا يزال مشروع هذه القوانين وقد طبعت كلها مع مذكراتها التفسيرية، لدى اللجنة التشريعية تنتظر الإشارة للعمل على عرضها وإصدارها.. وستعرض إن شاء الله، وسينظرها المجلس وتصدر للعمل بها، وتعود البلاد بذلك إلى أحضان شريعتها وكل آت قريب..

إننى أذكر الآن هذا بمناسبة ما قلته سابقًا من أن النائم لابد أن يستيقظ والمخدر لابد أن يفيق، والتائه لابد أن يعود إلى أحضان أهله، وإن طال به الزمن.. فكل من سار على الدرب وصل..

وقد كان من أسعد أيامى فى حياتى، يوم أن حضرت وشيخ الأزهر الدكتور

بيصار عليه رحمة الله الجلسة الأولى للجنة العليا، لوضع النظام الذى تسير عليه اللجان.. وتذكرت وقتها ما جرى لنا سويا من ضرب فى المظاهرة ١٩٣٦، من أجل المطالبة بتطبيق الشريعة، بينما نجلس الآن فى رحاب مجلس الشعب وبتوجيه من رئيس الجمهورية لنعمل لتطبيق الشريعة.. واستغرقت فى تأملاتى لأحداث الزمان، وما حفظته من صغرى: ما ضاع حق وراءه مطالب «وقلت: نعم فمن سار على الدرب وصل.. ولابد أن تعود الأمة إلى أصولها ولو طال بها الزمن.. ولو غرب بنا البعض أو شرقوا وكل آت قريب..

ولقد كان الفرق بين الموقفين قريبا من نصف قرن، وهى مدة قليلة جدا بالنسبة لعمر الشعوب.. والمهم أن نظل سائرين فى دربنا الأصيل، وسنصل يوما ما إلى هدفنا، مهما يكن فى طريقنا من عقبات. فالإيمان يذلل كل صعب، ويمد أصحابه بالقوة والعزم والمثابرة.. وفى النهاية لا يصح إلا الصحيح «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال»..

فلا حياة مع اليأس:

إننا لن نيئس، ولا يليق بالمؤمنين أن ييئسوا أو يقعدوا عن الاستمرار فى طريقهم فإنه «لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون»..

ولن يوهن عزائمنا، أو يخفت صوتنا، هذه المزامير والطبول العالية الصوت، التى تزمر وتطبل للغزو الثقافى، وتشيعه، بيننا، ولا يليق بالمؤمنين أن يتركوا الميدان لهم، ينفردون به، ويعربدون كما يحلو لهم..

فلقد غرهم أنهم جمعوا فى «الزفة» حولهم الكثير من الناس، الذين تسيرهم أهواؤهم وشهواتهم، دون أن يفهموا أن الأصلاء العقلاء لم ولن يمشوا فى هذه الزفة، ولا يليق بهم، فهم أوتاد الأمة، وهم جبالها الرواسى.. وإلى أفكارهم ودعوتهم ستعود الأمور.. لقد زينت هذه «الزفة» وطبولها العالية الصوت، الفارغة الجوف، زينت لبعض الناس أن يقولوا: إننا دولة علمانية. ويزين البعض الآخر لهم طريق العلمانية، ويتحدث أحد رجال الأحزاب بأن منهج

الحزب هو العلمانية، ويجد رد الفعل العنيف من الاستنكار، فيتراجع، ولكن بدون نظام.. ويأتى أحد الكتاب الكبار فيصور العلمانية لقرائه، بأنها مجرد الدعوة إلى العلم والتبحر فيه، وهو أمر يدعو إليه الإسلام ويخفى على قرائه حقيقة من حقائقها البشعة، ليبلعوا السم فى «برشامة» من الحلوى التى يقدمها لهم!

فما هى «العلمانية» بفتح العين أو بكسرها..؟